محاضرات في أدب المركز والهامش 2019-2020

المحاضرة السابعة – أدب الرحلة بين المركز والهامش

تعد الرحلة التجربة الأكثر إنسانية في تصوريها للقاء الثقافات وحوار الحضارات؛ إذ تمكن ثقافة الأنا من الدخول في حوار مع ثقافة الآخر من خلال مناظرة الصورة التي تشكلها الأنا عن الآخر ومدى تماسكها أثناء اللقاء المباشر بهذا الآخر وما ستحتمه من تعديلات وتغييرات قد تكون وليدة خيبة قاتلة لكنها تنتج انفتاحا على هذا الآخر وتفهما لخصوصيته وإن لن يعني ذلك انسلاخا عن الأنا وارتماء في أحضان هذا الآخر. مثل هذه النظرة قد تبدو مثالية في عمومها إلا أنها تظل الغاية المرتجاة من كل رحلة نحو الآخر. ولذا لا نستغرب إن كان الأدب المقارن الفرنسي خاصة قد أولى عناية فائقة بمثل هذا التوجه مثلما أقره جان ماري كاريه في خمسينيات القرن الماضي[1]. يواجه المقارن الرحلة كتجربة إنسانية متميزة، لا يساويها شيء بالنسبة للذي يعيشها، وتعد، في شكلها المكتوب، شهادة تأخذ حيزاً في لحظة محددة من التاريخ الثقافي لبلد معين : إنه الرحالة. فالرحلة التي يدرسها المقارن، هي تفاعل بين خلفية ثقافية للأنا وفضاء الآخر الغريب في بوتقة كتابة أدبية (مذكرات، مقالات، شهادات، روايات..الخ). ومن بين القضايا التي تواجه المقارن وقد تدفعه في طريق خاطئ أثناء التحليل هو تلك المسألة المتعلقة بمدى تداخل صدق الرحلة كشهادة ينقلها الرحالة من تجاربه الحية وكذبها المنبثق من خيال الذي ينسج من خيوطه الرحالة بعضا من فصول الرحلة. والحقيقة أن التوجه نحو البحث عن مدى مطابقة الرحلة كتجربة كتابية بما ندعوه جزافا "الواقع" ينتهي بنا إلى طريق مسدود، لا لشيء إلا لأن الرحلة في حد ذاتها بما هي نقل لوعي بالآخر من خلال الكلمة، لا تعدو أن تكون إنتاجا سيميائيا لفضاء الآخر يحكمه منطق اللغة الذي يجعل العلاقة بين العلامة والعالم علاقة اعتباطية، كما يذهب إلى ذلك بنفنيست.[2]

إذا تأملنا في العلاقات بين الرحلة والأدب نرى أنه من المدهش ملاحظة الأشكال الرئيسية الثلاثة التي تخطر على تفكيرنا ضمن تتابع يحترم التأريخ : الحج، والرحلة، والسياحة. من الواضح أن الحج ليس رحلة؛ فالحج بوصفه سفرا روحيا نحو العالم العلوي، يختزل المؤشرات الأرضية في دورها كعلامات تحيل إلى مكنونات غيبية وطقوس عبادية، فتفقد بذلك بعدها الجغرافي والإناسي. تتعارض الرحلة مع الحج والسياحة في الوقت نفسه، من حيث إن الرحالة يحتفظ بالسمة الفردية لعمله، وقراره. لا وجود لرحلة دون قرار يتخذه فرد بحرية. هذا النوع من الحرية (أو القدرية) للرحالة يجب ألا ينسينا بعض الطرق التي لا تجعل الرحالة حراً بصورة حقيقية في اختياراته، وتنقلاته. على سبيل المثال، لقد دأب المجتمع الانجليزي على تتويج تربية أحد أبنائه بإتمامه لـ (الدورة الكبرى) التي كانت تقوده حول العالم للقيام برحلة لمدة سنتين أو أكثر يزور خلالها فرنسا، وأرض الفن والسعادة الإيطالية (والتي جاءت منها كلمة سياحة). وعلى عكس الرحلة ذات البعد الشخصي، فإن السياحة بهذا الشكل محكومة بمسار محدد ومحطات إجبارية

---

[1] Pageaux, La littérature générale et comparée, Paris, A. Colin, 1994, p.31

[2] إبراهيم، عبد الله، معرفة الآخر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1996، ص.76-77

ومعرفة مضبوطة المحتوى يجب على الشاب امتلاكها حتى يكلل تكوينه بنجاح.تسمح برؤية اختلاط جولة شخصية متميزة مع نشاطات تثقيفية، وتعلم مع دورات متفق عليها، ومحطات إجبارية. [3]

***– الرحلة والأنوار:**

هناك ثلاث أفكار رئيسة تأسس عليها «مشروع» عصر الأنوار في القرن الثامن عشر، كما أوردها تودوروف في مؤلفه "[4]. وهذه الأفكار هي: «الاستقلال الذاتي – للأفراد. والغاية الإنسانية لأفعال البشر والقيمة الكونية. ». وما يهمنا في هذا الصدد هو تلك القيمة الكونية التي استمدت مبررات وجودها من «النزعة العلمية» التي تزامن ازدهارها مع الحداثة. وقد عرفت هذه النزعة تجسّدها في الفلسفة والسياسة، وتنطلق من القول إن «العالم كله يمكن أن يكون موضوعا للمعرفة وبالتالي يمكن تحويله تبعا للأهداف التي نحددها، وهي أهداف يتم استنتاجها مباشرة من معرفة العالم نفسه». وهو ما حمل هذه النزعة من المعرفة إلى السيطرة على العالم، وفي مثل هذا الإطار تندرج دراسة الرحلة في هذا العصر ؛ تعبر الرحلة وقصة الرحلة (أو المذكرات)، في ممارستها والتعبير الأدبي عنها، عن لحظة ثقافية معروفة جيداً هي لحظة التقاء الإنسان مع العالم الخارجي، وسيطرته الواضحة على العالم، وقدرته اللامحدودة على وصف العالم وفهمه، واعتقاده بسيادته عليه، ورهانه الدائم على إمكانية تحويل المجهول إلى معلوم ومفهوم. إن أوربا، في عين الرحالة، هي لحظة حضارة تتجرأ على تحديد مثاليتها (دون العودة إلى الآلهة)، وهو مقتنع بتفوق أوربا وبعالمية اللغة الفرنسية، وبفائدة الأنوار التي اكتشفها، قاطعاً الفضاء الذي يبدأ من لندن إلى نابل، ومن باريس إلى سان بطرسبرغ.[5]

***– الرحلة و الرومانسية:**

لقد اتصف الأدب الرومانسي بعدة صفات أهمها : أنه يجحد العقل ، ويتوج مكانه العاطفة والشعور ، ويسلم القياد للقلب . هو أدب ثورة وتحرر ، و عاطفة يكثر فيه الشعر الوجداني والإفضاء بذات النفس في قوة تشي بطابع الفرد وتعبر عن آلامه فهو أدب ذاتي يشوبه عدم الرضا بالواقع ومحاولة التمرد عليه ، و التغني بالألم والهروب من الحياة المدنية والقلق على المجتمع وما يعج به من أحداث والحزن الغالب على النفس في كل حال وبدون سبب و التمرد على عقلانية عصر التنوير ، كما اقترنت هذه الحركة بالحنين إلى الشرق ، هذا العالم الغريب الغامض المليء بالأسرار الذي وجد الرومانسيون في فروسيته ونورانية مشاعره وقودًا للخيال و مصدر خصب للتعبير عن العاطفة أوفر حرارة وحيوية من نور العقل والمادية وحب السلطة التي هام بها فلاسفة الغرب. ولذلك عبرت الرحلة في عصرهم غالباً عن الانفعال، وسحر اللحظة ، إنها دعوة لا تقاوم من الشرق.

---

3 Brunel, Pierre, Qu'est-ce que la littérature comparée, Armand Colin, Paris, 1996, p.34
4 Todorov, Tzvetan, Nous et les autres, Seuil, Paris, 1989, p.57
5 René Pomeau. L'Europe des lumières, cosmopolitisme et unité européenne au XVIIIe siècle. Paris, Stock, 1966, p.186